طلعنا عالحريّة
نصف شهرية، سياسية، ثقافية، مستقلة

ملحق خاص
قضايا المرأة

- الوجه الآخر.. الخفي.. للحكايات الجميلة
- قضية المرأة بين الحقيقة والزيف
- "معركة الحجاب" مرة أخرى
- طريق الحرية وعرة لكنها تنتهي بينبوعها
- "مريانا مراش" أول امرأة عربية تمتهن الصحافة
- لسجن عدرا للنساء حكايات وحكايات
- أعطني حريّتي.. أطلق يديّ
- أمل وزواجها الثالث والرابع

ملحق العدد 84 2017 / 1 / 16

الوجه الآخر.. الخفي.. للحكايات الجميلة

افتتاحية بقلم :يارا بدر

اثنا عشر عدداً أصدرتها مجلة "طلعنا عالحريّة" خصّصت أربع صفحات في كل منها لقضايا المرأة، حاولنا خلالها عرض قضايا إشكاليّة متنوّعة تعاني منها المرأة.. مقالات خطّتها نساء وخطّها رجال داعمون لقضايا المرأة، ولا ينظرون إليها كمفعولٍ به في العلاقة مع الرجل، بل كشريك فاعل وعلى قدر المسؤولية، كما تدل بعض الأمثال الشعبية في ثقافتنا، وهي الأمثال التي اختارت الأكثريّة الشعبيّة تجاهلها وإهالة التراب فوقها من طراز: (أنا جنّى وإنتِ بنّى).

وكي لا نشارك في عمليّة التجاهل للرواد في نظرتهم للمرأة كشريك درب، أو صاحبة مشروع، لا ككائن لا يصلح سوى لأن يكون محكوماً من الآخر، مسلوباً حقّه الإلهي والأوّلي في الاختيار، بل كائن يجني ويبني أيضاً، وفي ذات الوقت مثلّه مثل الرجل، ويتشارك معه في هذه الحياة بكل أوجهها.

وإنصافاً فإنّ الحديث عن المرأة السورية لن يكتمل دون الحديث عن رجال هم أشجّع الرجال، وأكثرهم نبلاً، رجال مثل "وائل حمادة" الناشط السياسي السلمي لسنوات طويلة، والذي لا يعرفه كُثرٌ ربما إلاّ مع حادثة اختطافه هو وزوجته المحاميّة والمدافعة عن حقوق الإنسان البارزة "رزان زيتونة" وزميلهما الشاعر والمحامي "ناظم حمادي" والمعتقلة السياسيّة السابقة "سميرة الخليل" قبل ثلاث سنوات في دوما التي تسيطر عليها فصائل عسكريّة مقاتلة.

وائل، الذي شرّفني بلقائه والتعرّف عليه حين وجدت نفسي وحيدة.. أهلي مسافرون وزوجي معتقل. عرض بكل أناقة استضافتي في منزلهم كي لا أبقى وحيدة.

وائل صامت معظم الوقت، هادئ كالبحر الذي تكون مغفّلاً جداً إن استخّفيت بهدوئه الظاهريّ، مُحبّب وطيّب، كريم وبسيط، لا يخشى القول بأنّ زوجته لا تحب الطبخ، ولا يخشى أن يدع لها مساحة الكلام الأعظم أو حتى أن يقف جانباً وهي تظهر تتوسّط شاشات التلفزة لتتحدّث عمّا يجري في الشارع السوري.

أشك أنّ هناك مظاهرة شاركت فيها رزان والرفاق ولم يكن معهم وائل، أشك أنّ هناك عمل انهمكت فيه رزان ولم يكن وائل داعمها وسندها الأوّل، شريكاً وزميلاً في العمل، وسنداً في الحياة اليوميّة، في حياة التخفّي، في تجربة العيش في المناطق الخارجة عن سيطرة القوّات الحكوميّة، في الأفراح الصغيرة والأوجاع الكبيرة.

وائل، لمن لا يعرفه، امتلك دوماً نشاطه السياسي الخاص، ورأيه المُستقل، الذي لم يخش الإفصاح عنه والدفاع عنه. لكن وائل ببساطة رجل قليل الكلام، يحترم الصمت الذي وصفه "محمود درويش": "يكون الصمت فأساً/ أو براويز نجوم". ووائل قد يكون- بحسب معرفتي- الأنموذج السوري الوحيد لرجل اعتقل على اسم زوجته وبسبب نشاطها الحقوقي المعارض، إذ في خريف العام 2011 اعتقل وائل وأخوه لمدّة ثلاثة أشهر لدى المخابرات الجويّة للضغط على رزان لتسليم نفسها، على العكس من سياسة النظام منذ الثمانينات باعتقال النساء للضغط على أزواجهنّ وأبنائهنّ وأخوتهنّ ليسلموا أنفسهم، وهي السياسية ذاتها التي اتبعها منذ آذار 2011.

كم يمتلك من شجاعة ذاك الرجل الفخور بزوجته، الشريك في مغامرتهما بالحلم بوطنٍ أجمل وأكثر احتراماً للكرامة الإنسانيّة. وكم يمتلك من حُبٍّ يُجابه به منظومة مُجتمعيّة متخلّفة لم تؤسّس سوى لمجموعة لا مُتناهيّة من الانطباعات السلبيّة المُسيئة لرجل بمثل هذا النبل.

نحن المراقبون الجانبيون لا نملك سوى انطباعات خفيفة كفلاشات كاميرا، لكنّ المواقف والواقع يتحدّث عن استثنائيّة هذه التجربة، ووحدهما رزان ووائل من سيتحدّث عنها يوماً ما بكل ما نشتهي من معرفة.. في انتظار ذاك اليوم، نعيد لهما ما قال "درويش":

"أنا شاهدة القبر الذي يكبر
يا ريتا
أنا من تحفر الأغلال في جلدي
شكلاً للوطن..
نلتقي بعد قليلٍ، بعد عام
بعد عامين، وجيل..."!

طلعنا عالحريّة
مجلة نصف شهرية تعنى بشؤون الثورة
تطبع وتوزع داخل المدن والقرى السورية
وفي بعض مخيمات اللجوء

www.freedomraise.net
المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها أولاً
ولا تعبر بالضرورة عن آراء هيئة التحرير
المجلة غير ملزمة بنشر كل ما يردها من مواد
رئيس التحرير ليلى الصفدي

تفاعل معنا عبر صفحاتنا على الإنترنت
facebook.com/freeraise
twitter.com/freedomraise
info@freedomraise.net

معاون رئيس التحرير: أسامة نصّار
قسم حقوق الإنسان: أنور البني
قسم المرأة: يارا بدر
المحرر الاقتصادي: وائل موسى
الغلاف: سمير خليلي
كاريكاتير: سمير خليلي
زملاء مختطفون في الغوطة الشرقية: رزان زيتونة - ناظم حمادي

قضية المرأة بين الحقيقة والزيف

يوسف المنجد

يعالج الكثير من المفكرين والكتاب على اختلاف انتماءاتهم قضية المرأة،ويعتبرها معظم هذا الكثير – وهو محق - قضية نهضوية وحضارية محورية،أي أن عدم معالجتها يعوق النهضة ويحول دون اللحاق بركب الحضارة.ويعزون بالتالي قسما كبيرا من التخلف والانحطاط الذي يلف أمتنا العربية والإسلامية، إلى تردي وضع المرأة ، والذي يربطونه بالعقلية الذكورية المهيمنة التي تمتد جذورها عميقا في ثقافتنا وتراثنا، وأنه مالم تتم معالجة قضية المرأة أسوة بما فعلته الحضارة الغربية، التي حررت المرأة وساوتها بالرجل في شتى المجالات، فلن تعرف أمتنا نهضة تذكر، وسنبقى نراوح في مكاننا متخبطين بوحول الجهل والتخلف .

هذه المعالجة المجتزأة ، التي تسلخ قضية المرأة عن قضية الإنسان الكبرى، تجري منذ قرن تقريبا، منذ هدى شعراوي وقاسم أمين، وهي لا تزال تجري على نفس النسق، ومع ذلك لا تزال القضية ساخنة مع نتائج هزيلة. فهل يعود السبب في ذلك الى سوء المعالجة أم إلى صلادة القضية؟ أم إلى أن القضية برمتها زائفة وغير حقيقة؟ وأن ما تعانيه المرأة ليس مشكلة أساسية، وإنما هو عرض أو مفرز لقضية أخرى؟ وأنه بمحرد علاج أصل الداء أو المشكلة ستتبدد قضية المرأة من تلقاء ذاتها؟ وهو ما نميل الى تأييده في هذه العجالة.

بل نذهب إلى أبعد من القول بأن قضية المرأة زائفة وغير حقيقية فنقول: بأن معالجة قضية المرأة بهذا الشكل، هو أحد أسباب تجذر هذه القضية وتضخمها وتكريسها والفشل في معالجتها. أي أن معالجة قضية المرأة بهذا الشكل هو سبب رئيس في وجودها، ذلك أن أصل المشكلة هو مشكلة إنسان بغض النظر عن جنسه، وأن تخصيص المرأة بقضية منفصلة عن قضية الإنسان بشكل عام، هو في حد ذاته حط من قيمة المرأة، أو رفع لها الى مرتبة أعلى من مرتبة الإنسانية، وهذا ما لا نعتقد أن المرأة تريده .

وهو كذلك كرس لدى قسم كبير من النساء شعورا اضطهادياً، يؤدي في الغالب إلى ردة فعل عدائية تجاه الرجل بشكل خاص باعتباره ممارسا للاضطهاد والقهر، وتجاه المجتمع بشكل عام باعتبار أن قوانينه وعاداته وتقاليده ومعتقداته هي السبب رواء الوضع المزري الذي تعيشه، وهي استجابة سلبية لا تُحدث فارقا أو زحزحة في الثقافة المنتجة لهذا الوضع، بقدر ما تؤدي الى نتيجة عكسية تتمثل في ازدياد التشبث بتلك العادات والتقاليد ورسوخ القناعة بصوابها كون هذا القسم من النساء غالبا ما يتمرد بفجاجة على المجتمع، الذي ينتج بدوره استجابة مضادة (دفاعية) فينظر الى هذا القسم من النساء نظرة ريبة واحتقار بسبب مروقهن على ثقافته وتقاليده، وبالتالي لا تشكل النساء من هذا الصنف قدوة لأترابهن، بل مثلا لوصمة العار التي يفررن منها.

ـ ويكرس كذلك شعورا بالدونية لدى القسم الآخر من النساء، وهو القسم الأكبر، حيث تنظر المرأة الى نفسها – عن اقتناع- نظرة احتقار، وترى نفسها أقل من الرجل في كل شيء، لدرجة الخجل من كونها امرأة .

لا أحد يمكنه أن ينكر الوضع المتردي للمرأة، وأنها تعرضت ولا تزال الى الكثير من الظلم والمهانة والتمييز والتحيز، ولكن الذي نود قوله هو أن هذا الأمر يعتبر نتيجة طبيعية لظلم ومهانة الإنسان بشكل عام. وظهوره على المرأة بشكل أوضح، يرجع الى كونها الطرف الأضعف في المعادلة، فالقضية ليست قضية مرأة بقدر ما هي قضية إنسانية معطوبة، ولعل أفضل من نبه إلى هذا الأمر هو الدكتور مصطفى حجازي في كتابه (سيكولوجيا الإنسان المقهور) حين بين أن القهر الذي يتلقاه الضعيف من القوي، يمارسه على من هم أضعف منه، ممن يخضعون لسلطته المباشرة (أسرته وزوجته بشكل خاص)، وهكذا من قمة الهرم وحتى قاعدته، وبالتالي فإن معالجة قضية المرأة بمعزل عن معالجة قضية الإنسان بشكل عام هو في الواقع تزييف لأصل المشكلة، وعامل في استمرارها كما أسلفنا، ومن ثم فإن جوهر المسألة هو أنه إذا صلح الإنسان صلحت المرأة، وإذا تقهقر الإنسان تقهقر وضع المرأة، وهذا بالطبع ليس لأن المرأة شيئاً مختلفاً عن الرجل، وإنما لأنها إنسان كما الرجل تماما، وأنه إذا كانت المرأة بخير فإن الرجل حتما بخير، وأن العكس صحيح تماما.

وإذا كانت قضية المرأة مفرز ثقافي، فإن حلها لا يكون بالمطالبة بالمساواة لها مع الرجل، المنتهكة حقوقه بالمثل، لأن هذا لن يقدم في الأمر شيئا، وإنما يكون بالذهاب الى الجذور الثقافية التي تنتج هذا الواقع المتردي، والتي تجعل من بعض السلوكيات الذكورية ضد المرأة، واجبا اجتماعيا أو دينيا، وتعريتها والحفر حولها، واقتلاعها من الأعماق، وعندها ستتوقف شجرة المجتمع عن طرح تلك الثمار الخبيثة .

إن الرجل أو لنقل الذكر بمعنى أدق، حين يمتهن المرأة ويسلبها حقوقها، لا يكون في موقف يحسد عليه ، أو في مكانة متفوقة عن مكانتها، وإن بدا في الظاهر كذلك، لأنه في هذه الممارسات ضحية مثله مثل المرأة، فهذه الممارسات تنبئ عن أن روحه مسحوقة، وإنسانيته جافة، وأن عقله مضطرب لا أكثر .

وكذلك المرأة حين تتماهى مع العقلية الذكورية تلك، وتدافع عنها وتغذي بها أبناءها، فإنها تمارس نفس ما يمارسه الرجل تجاه جنسها، ولعل في هذه الفقرة الأخيرة خير دليل على أن معالجة قضية المرأة لا يكون بالمطالبة بحقوقها، أو إظهار أنها ممتهنة ومستلبة ،لأنها لا تكون ضحية هذه الأفكار دائما ، وإنما تقوم بدور الجلاد في كثير من الأحيان، بل ربما يكون لها الباع الأطول في امتهان المرأة عبر توريثها ثقافة الامتهان هذه لأبنائها .

هل يعني هذا أخيراً أن نتوقف عن طرح قضية المرأة ؟ لا إطلاقا ، ولكنه دعوة إلى تغيير زاوية الرؤية لتلك القضية ، وتوجيه الأنظار الى الأعماق بدل السطح ، والنظر إليها من زاوية أن الرجل ليس خصما ، وإنما هو ضحية ، يحتاج إلى إنقاذ مثل المرأة تماما ، فلعل في تغيير زاوية الرؤية أن يأتي بنتائج مغايرة .

"معركة الحجاب" مرة أخرى
حرية شخصية أم وسيلة إضافية للوصاية على النساء؟

ليلى الصفدي

تبرد الأحداث والمآسي وتندمل الجراح الكبرى على الساحات الافتراضية للسوريين، فيما يعود موضوع الحجاب ولباس المرأة إلى الصدارة ساخناً كل مرة.

ورغم البداهة التي تقتضي أن يكون الأمر حرية اختيار شخصية، إلا أنه يعود ليثبت نفسه كمادة للحوار العام، وكأداة للسيطرة والوصاية، أو في حالات كثيرة كذريعة للتحرش ولانتهاك كرامة النساء اللواتي اخترن إظهار ملامحهن للآخر بمحض إرادتهن.

ولا يندر أن تُشن الحملات الفضائحية السياسية التي تستخدم سلاح "عورة المرأة" ضدّ سياسيات أو ناشطات بهدف الإسقاط، ويتم هذا الأمر غالباً على شكل مهرجانات عامة تقام على صفحات معارضين ومثقفين يدّعون التحرر والعلمانية في دعوة مفتوحة لعموم الجمهور للمشاركة في الطعن والإهانة والإسفاف بحق المستهدفات، وذلك دون أدنى حد من احترام إنسانيتهن، ولا أدنى محاولة لنقاش أو نقد أفكارهن وطروحاتهن.

وبالطبع لا يقتصر الأمر على الساحات الافتراضية، فحياة النساء في المناطق السورية "المحررة" باتت تخضع في كل تفصيلاتها لقيود التطرف، ومن المرجح أن الحجاب بما يستتبعه من قيود قد أصبح هو القاعدة في حياة النساء السوريات في تلك المناطق.

ولقد شهدنا منذ سنوات اختطاف آخر امرأتين سافرتين في الغوطة الشرقية على يد من يفترض أن يحميهن من بطش النظام، ولم يشفع لهما عند خاطفيهما كل تاريخهما وتضحياتهما في مقاومة النظام وقيادة جانب هام من الثورة السلمية السورية، ونعني هنا المغيبتين قسرياً "رزان زيتونة" و"سميرة الخليل". ولا يفوتني هنا أن أذكّر بحرق المئات من نسخ مجلتنا "طلعنا عالحرية" على حواجز الفصائل المتطرفة في الشمال بحجة صور "المتبرجات": رزان وسميرة!

لكن وقبل القفز إلى التعميمات والأحكام والنتائج، قمنا بطرح السؤال على عدد من الكتاب والصحفيين والمهتمين، وكان هناك العديد من الآراء الجديرة بالتفكير والمراجعة، نستعرضها بما تسمح لنا المساحة في هذا التقرير.

كان سؤالنا الأول:

لماذا ارتبط تعميم الحجاب في سوريا بتمدد الثورة السورية، سواء في مظاهرها السلمية أو العسكرية؟

الطبيب والكاتب "عماد العبار" لا يرى أنّ المسلّمة المطروحة في السؤال صحيحة، ويقول: "لا صحّة بتصوري لما يشاع عن ظاهرة "تعميم الحجاب" في سوريا. لا أرى أنّ ظاهرة الحجاب انتشرت بصورة واسعة خلال الثورة السورية. وألفت انتباهكم إلى وجود رأيٍ مقابل في الأوساط المتديّنة يدّعي العكس تماماً، أي يقول بعضهم بوجود ظاهرة "خلع الحجاب"، بل ثمة من يتحدث عن انتشار ظاهرة الإلحاد أيضاً كنتيجة لحدوث تصدع في المجتمع وتضاؤل الرقابة، وتزعزع اليقينيات الدينية والمجتمعية على إثر تصاعد القتل والعنف"..

إذاً، ما الذي حدث؟

"الذي حدث بتصوري هو خروج المحجبات وانخراطهن في العمل الثوري الأول على نطاق واسع جداً، من خلال المشاركة في المظاهرات، ثم اشتراكهن في جميع الأنشطة الملحقة كالإغاثة والتعليم والإعلام" يضيف العبار مؤكداً بحق: "أن المشاركة لم تكن واردة قبل قيام الثورة لوجود معوقات كثيرة، منها السياسي ومنها المجتمعي والديني.. وهذا ما جعلنا ننتبه إلى وجود هذا العدد الكبير من المحجبات في مجتمعنا، وقد كانت غالبيّتهن بعيدات عن العمل في الشأن العام".

لكن العبار يعود ليقول: "يمكن الحديث عن ظاهرة فرض الحجاب، والنقاب أحياناً، في بعض المناطق التي سيطرت عليها بعض التنظيمات المتشددة، وهنا ترافقت هذه الظاهرة مع ضعف نشاط النساء وقلة انخراطهن في الشأن العام، بسبب الضغط الذي مورس عليهن من قبل تلك التنظيمات.. وهنا المسألة لا تقتصر على الحجاب وحسب، بل ساد جو استبدادي أثر على حياة الرجال والنساء في بعض المناطق".

في المقابل يعتقد الكاتب ماهر مسعود أن "تعميم الحجاب لم يرتبط بتمدد الثورة بالمعنى الجغرافي، بل بامتدادها بالمعنى الزمني، وتحولاتها نحو العنف المسلّح كرد فعل عفوي وطبيعي على عنف النظام وإجرامه بحق الناس الثائرين" مضيفاً أنه "علينا التمييز بين المظاهرات السلمية أثناء المراحل السلمية، أي في بدايات الثورة الأولى، والمظاهرات السلمية المحمية عسكرياً فيما بعد، أو في المناطق "المحررة" التي تآكل تحريرها على يد الإسلاميين.

وفي هذا المقام لابد أن ندرك أن العنف والعنف المضاد لا يولد مظاهر تحرر حقيقية موجبة، لا في مسألة الحجاب ولا في غيرها، وبالتالي كان تعميم الحجاب هو تأقلم اجتماعي من قبل النساء مع سيطرة الإسلاميين وسيطرة الرجال حقيقة على مشهد الثورة، فمعروف أن أكبر ما خسرته الثورة نتيجة العنف المسلح هو مشاركة المرأة الفاعلة في الثورة، إضافة لسيطرة الإسلاميين رويداً رويداً على الثورة، وأنا أتحدث هنا عن سوريا الداخل بشكل أساسي".

الصحفية والناشطة يارا بدر لا ترى أنّ المد الإسلاموي ارتبط بالثورة، ورغم عدم وجود إحصائيّات أو أرقام دقيقة كما تقول إلا أن مشاهداتها وهي التي كانت تعيش في سوريا، تميل إلى القول إن "فتيات كثيرات خلعن الحجاب عام 2011 مع انطلاقة الثورة السورية، ولا يعني هذا بالضرورة أي ارتباط عضوّي بين الفعلين". وتتابع بدر: "ما أريد قوله إنّ المد الإسلاموي انتشر في سوريا منذ ما بعد عام 2000, أذكر أنني أنّا الفتاة التي سكنت في منطقة "القدم" الملاصقة لمنطقة "باب مصلى" وكلاهما من المناطق الشعبية لأكثر من ثلاث سنوات وجدت نفسي بعد فترة من مغادرتي للمنطقة تقارب الخمس سنوات أسمع عنها ما يُثير عجبي وخوفي في آنٍ معاً؛ مثل أنّ فتاة ترتدي تنورة لا تستطيع العبور في المنطقة دون أن تسمع كلمات تزعجها، وفجأة بدأت أشعر أنّ منطقة "باب توما" و"باب شرقي" حيّز خاص لا يشبه باقي دمشق! غريب ومرغوب لأنّ فيه "المسيحيون" ومناطق السهر، وفيه الفتاة تستطيع أن ترتدي ما تشاء من ملابس سبور. قبل 2010 حقيقة لم أسمع عن "القبيسيات" على سبيل المثال، ولم أسمع عن تمدّدهنّ بفعل الثورة السورية. بل هنّ انتشرن وظهرن ورُخصّ لهنّ بفعل ممارسات حكوميّة مدروسة".

الكاتب جلال مراد أيضاً يميل إلى الموافقة على هذا الكلام حيث يقول: "شعارات الثورة وروحية 2011 لم تكن تحمل معها التعصب الديني، لقد كان هناك تمرد على مركزية خانقة عبرت عن نفسها بالشعارات التي تبنتها وصدحت بها حناجر السوريين. ولعل المشترك بين كل تلك الشعارات "الشعب يريد". الشعب يريد إحساس وتعبير حُرم منه السوريون حينما كان هناك دوماً من يريد عنهم ويفكر عنهم".

ويضيف مراد: "كانت السلسلة تنتشر من تونس لمصر لليبيا، وقد تنبهت واستنفرت الدول العربية لخوف حقيقي من انتقال الثورة. القوة الضاربة كانت دول الخليج بزعامة السعودية فكان مفعول الجزرة أقوى من مفعول العصى، وما تم فعلاً هو فصل إدارة الكتائب عن الإدارة السياسية والمدنية،

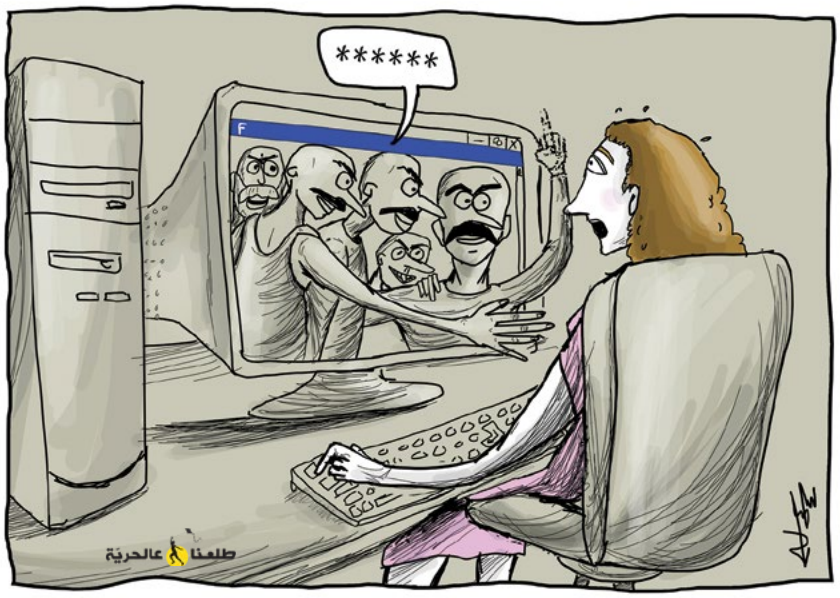

حيث وضعت الدول الخليجية بشكل أساسي اليد على الكتائب، وغذت الفكر التكفيري. ذلك الفكر الذي امتلك القوة وبالتالي الجبرية لتحقيق نفسه بالحجاب وغيره من مظاهر الحياة التي تعبر عن هذا الفكر".

ويربط مراد هذا التراجع بالتراجع على مستوى العالم: "نلاحظ أن أزمة الرأسمالية ونمط الحياة الاستهلاكي وتحلل القيم الإنسانية لصالح قيم الاستهلاك، أدت لردة الجماعات الإنسانية للتحلق حول هوياتها الجزئية؛ فاليمين بدأ بالتشكل في أوروبا، وأصبحت المصلحة الإمريكية المجردة من أي أخلاق إنسانية سافرة عن نفسها، والإسلاميون أيضاً ارتدوا لمكوناتهم الدينية، والكرد للقومية والأقباط للقبطية والأقليات المذهبية وهلم جرا..".

ويلخص مراد رأيه بموضوع الحجاب كظاهرة في سوريا ببعدين أساسيين:

"بعد خاص يتجلى باستثمار الخليج بالسنة والتوجه الوهابي لإيقاف المد الشيعي. وبعد عام يتجلى بانكفاء الهويات الجزئية على نفسها نتيجة فشل النظام المدني- الرأسمالي في تلبية التوجهات الروحية الإنسانية".

الصحفية والناشطة ياسمين مرعي، والتي كانت لها تجربتها الخاصة مع الحجاب لا تعتقد أن القضية هي قضية تعميم الحجاب، بقدر ما هي المساحة التي أتيحت لتسليط الضوء على المجتمعات السورية المتدينة التي كانت خارج دائرة الضوء قبل الثورة السورية"، مضيفة: "هذه الإتاحة ارتبطت بما عرف بالمناطق المحررة التي يسود أغلبها الطابع السني من جهة، وتتركز فيها قوى المعارضة المسلحة ذات الطابع الإسلامي بدورها من جهة أخرى".

كان لا بد لنا هنا من طرح سؤال آخر أكثر جذرية، ويرتبط بمنطلقات الثورة وأهدافها، وبمطالب الحرية والتمدن التي رفعت شعاراتها الثورة السورية منذ البداية، ألا يتناقض تصاعد وتعميم الالتزام بارتداء الحجاب وانتشاره مع مطلب الحرية؟

يجيب الدكتور عماد العبار: "لا يوجد تعارض بالأساس بين تحرّر الإنسان وبين الزيّ الذي يختاره. أعتقد أنّ السؤال ينطلق من مسلّمة أخرى خاطئة، ومفادها أنّ الحجاب مفروض على المرأة، وهو مفروض عليها في حالات ولكنّ كثيرات اخترنه عن طواعية. الأمر نفسه يحدث مع غير المحجّبة، فكثيرات من غير المحجبات محاصرات ضمن أوساطهنّ بأفكار وتصورات تجعل من غطاء الرأس علامة على التخلف، وبالتالي ثمة نظرة جاهزة واتهام مسبق للمرأة تجعل نفسها عرضة له فيما لو قررت وضع غطاء الرأس، مما يجعل كثيرات منهنّ يرفضن الفكرة من أساسها، بل ويحاربنها ايضاً، ليس بسبب قناعة وإنما بسبب خوف غير واعٍ من نظرة جاهزة ومسبقة.. هنا يتوجب علينا إذاً الكلام عن زي مفروض على المرأة، سواء كان حجاباً أو كان عكس ذلك تماماً. فإذا كان الزيّ، مهما كانت صفته، ناتجاً عن قناعة حقيقية واختيار حر، فلا يحق لأي كان أن يجعل الاختيار معاكساً لمبدأ الحرية..".

أما الكاتب ماهر مسعود فيجيب بنعم على ذات السؤال: "نعم، يتناقض تعميم الحجاب مع مطلب الحرية، ولكن هذا ليس بالمطلق، بل إذا فهمنا أن ارتداء الحجاب وتعميمه كان قسرياً بمعنى من المعاني، لعدم وجود خيارات حرة أمام النساء ولا سيما نساء الداخل السوري". ويضيف مسعود: "إن هزيمة المجتمع السوري أمام عنف النظام اللامعقول، خفّضت من مساحة الحرية الاجتماعية بشكل عام، وتزايد المظاهر الدينية (والحجاب ليس استثناء هنا) كان عاماً في سوريا وهو سيبقى طالما بقي المجتمع معنّفاً، والعنف هو سيد الموقف. وطالما أن الحرية السياسية، وهي أبسط أنواع الحرية، لم تتحقق بعد، فإن الحريات الأعقد الاجتماعية والدينية ستبقى تجارب فردية ومحدودة وخاضعة للتجارب الشخصية، ولن تتحول إلى ظواهر عامة تسود المجتمع في كل فئاته".

الصحفية يارا بدر تربط الأمر بغياب القانون، حيث تقول: "حين يكون القانون هو الحاكم بين الناس فلا تناقض طبعاً، حين يكون القانون الذي يحترم الإنسان والكرامة الإنسانيّة ولا يفضّل مسلماً على غير المسلم حتّى، فالله من يحاسب الناس جميعاً وليس نحن البشر الفانون. لكن حين تكون الدولة في مرحلة تبدّل في أنظمتها المجتمعيّة والدستوريّة والقانونيّة.. أقول إنّني لا يمكنني أن أخرج من خوفي بأن يقتنص مَنْ خوّل لنفسه محاكمة البشر باسم الدين ورواياته هذا التغيّر وأن يلغيه ويُقيم بدلاً عنه ديكتاتورية دينية كما حدث في أفغانستان وإيران وبعض دول الخليج". وتتابع: "ذات الديكتاتورية التي يخشى المسلم من قيامها لتلغي له حريّاته الدينية كما حدث في أنموذج الديكتاتوريّات الستالينية، لكن اليوم أعتقد أنّه على هذا المسلم أن يتفهّم خوف المؤمنين بالله والمؤمنين بحرّيتهم الفرديّة وخياراتهم وأفكار القانون والدولة والمواطنة".

أما الصحفية ياسمين مرعي فتختم بالقول: "إذا كان ما يحدث في سوريا هو تصاعد وتعميم فعلين لارتداء الحجاب، فهو بصيغة ما يتناقض مع مطلب الحرية في مساحتيها الشخصية والاجتماعية. الخطير في الأمر هو محاولات قصر الثورة على طيف واحد من الشعب السوري من وجهة نظر الفصائل الإسلامية التي تتبنى هذا النوع من التوجه، وتتغاضى عن الكثير من الأولويات أمام ادعاء تطبيق الشرع بملاحقة النساء، من تحجبت ومن تنقبت، ومن جهة أخرى الخطر كامن في تصديقنا كعلمانيين لمتلازمة تمدد الثورة- الأسلمة، هناك رغبة عارمة لدى السوريين والسوريات تحديداً بالتحرر من أشكال القيود كافة، ما يحدث في سوريا اليوم هو نتيجة فوضى السلاح، وهو كذلك ردود فعل على فصل الشعب السوري طائفياً، لكنه عارض سيزول بزوال السلاح من سوريا كعامل أساسي لتخويف الناس وفرض قوانين وأحكام سيأتي وقت ينتفض عليها السوريون ليعودوا إلى طبيعتهم"

أعطني حريّتي.. أطلق يديّ

بشرى البشوات

لن نجانب الصواب إذ قلنا بأنّ مشكلة الطلاق هي مشكلة عاديّة تماماً. والقول بأنّها عاديّة يعني أنّها مُتكرّرة ومُنتشرة في كافة المجتمعات البشرية، شرقها وغربها. كذلك فأنّ هذه الصفة لا تعني إضفاء طابع القيمة على الظاهرة، هي فقط إحالة إلى ما هو شائع ومُتكرّر.

وإلى ذلك يمكن اعتبار الطلاق بما هو كذلك صفة لصيقة بالاجتماع البشري، على التحديد اجتماع الرجل والمرأة، فهو بالمعنى التاريخي مُلازم لهذه العلاقة بوصفه أحد مآلاتها. بهذا المعنى يمكننا الحديث عن الطلاق بمثابته أحد قوانين الطبيعة الاجتماعية.

ولثقافات الشعوب مواقف متباينة من هذا الأمر؛ ففي الوقت الذي نعتبره نحن في مجتمعاتنا العربية ظاهرة بغيضة ومذمومة باعتبارها "أبغض الحلال عند الله"، فإنّ مجتمعات أخرى تعتبرها حقاً شخصيّاً لطرفي العلاقة.

تحاول هذه السطور مقاربة مشكلة الطلاق من منظور تحليلي يذهب إلى الأسباب الكامنة فيما وراء الظاهرة التي ينبغي النظر إليها بوصفها أحد أكثر المشكلات الاجتماعية التي تضع الأسرة على محك التفكك والتلاشي، ما يعني تأثّر أفراد الأسرة بنتائجها النفسية والاجتماعيّة والأخلاقيّة المختلفة.

نتحدث هنا عن الزواج لأنه لا طلاق بلا زواج، حيث أنّ الزواج والطلاق لحظتان جدليتان في العلاقة بين الرجل والمرأة. وبالتالي فمقدمات الطلاق كامنة في مقدمات الزواج. ونحن ندرك أنّه في السياق التحليلي للظاهرة أنّها نتيجة كامنة في المقدمات، وهنا فالمقدمات تسبق حتّى فعل الزواج ذي الطبيعة الاجتماعية؛ طبيعة ترى في هذا الفعل وسيلة بيولوجية ضروريّة ولا غنى عنها من أجل استمرار النوع الإنساني، أقرّتها جميع الشرائع السماوية والأرضية، ليس بوصفها حقاً بل بوصفها واجب اجتماعي وواجب ديني أيضاً (في الموروث الشعبي لدينا يعتبر الزواج نصف الدين، ولا يكتمل الدين إلّا به)، ويرى بعض الفلاسفة والمفكّرين بأنّ الأسرة أي الزواج كمؤسسة هي لحظة موضوعيّة للروح أو العقل.

في ألمانيا على سبيل المثال، وبالرغم من شحّ المعطيات والإحصائيات الدقيقة حول ملفات اللاجئين، أشار الإعلام أكثر من مرّة إلى انتشار ظاهرة الطلاق بين الوافدين الجدد. نساء يطلبن الطلاق بمجرّد وصولهنّ إلى ألمانيا، أو زوجات ترفض الالتحاق بأزواجهنّ، وحتّى أزواج يرفضون القيام بإجراءات لم الشمل.

فهل تتوفّر البيئة الفرديّة المناسبة التي تجعل قرار الزواج مبنيّاً على حريّة الاختيار وموضوعيّة الإرادة ووعي الضرورة الذاتية بأبعادها النفسيّة والعاطفيّة والجسديّة؟ علماً أنّ هذه البيئة الفردية ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببيئة أوسع هي البيئة المُجتمعيّة التي يجري فيها نظام للقيم والعادات والتقاليد المُقيّدة للبيئة الفردية المنتجة لقرار إتمام الزواج، وبالتالي هل تنبني معظم الزيجات بناءً صحيحاً يُفضي إلى استقرار ونجاح التجربة؟

نكاد نجزم أنّ معظم قرارات الزواج مرتبطة بعموم البيئة الاجتماعية، وبالتالي ثمّة رواسب اجتماعية مُتعدّدة في قرار الزواج، ويمكن الإشارة مثلاً إلى عامل القرابة أو إرادات الآخرين وتدخلاتهم، سواء قبل الزواج أو بعده، فضلاً عن قيود تفرضها موروثات وعادات وقيم اجتماعية أوسع تتعلق بتوصيات مقدسة بالزواج من داخل الجماعة الدينية أو المذهبية أو العرقية حتى، وهذا ما يقلّل حريّة اختيار الشريك.

لقد استقرّت هذه الأنماط في الوعي واللاوعي، الفردي والجمعي، بوصفها توصيات مُلزمة؛ ما يعني أنّ ثمّة أجواء ومناخات تقليدية هي التي تحكم في الغالب الاختيارات الفردية في مشروع الزواج وتكوين الأسرة.

السيدة "علا. ط" طبيبة أطفال قدمت من سورية مع زوجها وثلاثة أولاد إلى ألمانيا، وبعد وصولها طلبت الطلاق. تقول السيدة علا بأنّها عاشت معه خمسة عشر عاماً مشحونة ومذلّة، وبسبب وضعها الاجتماعي ووضع عائلتها لم تجد من يناصرها للطلاق سابقاً، ولخوفها من أن يأخذ منها الأولاد. تقول بأنّها تحرّرت هنا من كل هذه القيود، وقامت السلطات الألمانية بنقلها إلى مخيم خاص أنشئ خصيصاً لحالات الطلاق حيث تعيش مع أولادها.

لكن لا بد من الاعتراف بأنّ كثيراً من الزيجات التي تصدر عن حرية الاختيار والإرادة انتهت إلى الفشل بالنتيجة، وليست جميع الزيجات التقليديّة تنتهي بالطلاق، فهناك الكثير من الحالات المتّسمة بالاستقرار والنجاح على أقل تقدير.

تقول السيدة "مناهل. ف": "تزوجت عن حبّ وقناعة، وأنجبت منه بنتاً، لكن بعد وصولنا إلى ألمانيا أخذ زوجي يتردّد على الملاهي الليلة

ويعاشر نساء أخريات. احتملت هذا الوضع لعام كامل، وهو يعود مخموراً وينفق كل مستحقاتنا المالية خلال النصف الأوّل من الشهر، لنمضي بقيّة الشهر في الاقتراض وضيق الحيلة. لم أستطع الاستمرار فطلبت الطلاق وحصلت عليه، وتمّ نقل زوجي خارج البيت".

في اعتقادنا أنّ المقاربة السابقة هي مربط الرهان في تفسير ظاهرة الطلاق، وإنّ حريّة الاختيار هي شرط يجب تحريره من ضواغط البيئة الاجتماعية والثقافية لكي نصل إلى اختيار مبني على الوعي والإرادة الحرة، هذا لا يعني عدم وجود أسباب أخرى ذاتية أو شخصية أو مادية تقف خلف الطلاق، لكن في الغالب الأعم لا ترقى إلى أهمية العوامل السابقة.

حين يوجد خلل في عملية الزواج فإنّ ذلك يقود منطقياً إلى ظهور النقيض الذي هو الطلاق، وحين تتوافر البيئة الآمنة والضمانات القانونيّة للتخلّص ممّا أصبح عبئاً خنق المرأة السورية التي عانت من ضواغط في علاقتها الزوجية، علاقة ربما كانت غير متكافئة، وربما سادها الكثير من التسلّط والاستبداد والعنف حتّى، فبالتأكيد حين تتوافر ضمانات قانونيّة وتحرّر من الشرط المادي وضواغط البيئة الاجتماعية، فإنّ ذلك سيقود إلى تحطم جدار الخوف والقلق، وسيكون الطلاق هو الخيار في هذه الحالة. ولايهم أن يكون بعد ذلك المكان هو سوريا أو المانيا، لأنّ قرار الطلاق لن يكون سوى إجابة منطقيّة لخللٍ أصاب المقدمات.

لسجن عدرا للنساء حكايات وحكايات

روعة الشامي

من حملة #المعتقلات_هن_الجميلات التي أطلقتها "حلقة سلام عنتاب- شبكة أنا هي"

تداولت منذ بداية الثورة السورية قصص التعذيب والانتهاكات الجسيمة التي تعرّض ويتعرض لها المعتقلون والمعتقلات داخل أقبية وسجون النظام السوري، لكننا غفلنا عن ذكر أوضاعهم وحالاتهم الإنسانيّة في تلك المراحل، والتي هي أشدّ وقعاً في نفوسهم من حالات التعذيب الجسدي أو حتّى التعذيب النفسي الذي تعرضوا له.

وهنا سأخصّ بالذكر المعتقلات السوريات، تلكم النسوة اللواتي قدمن الكثير خلال الثورة السورية، وكنّ نداً قويّاً إلى جانب الرجال في عملهن الإغاثيّ أو الطبيّ أو الإعلاميّ. وهنا لن نتحدّث عن الأفرع الأمنيّة والوحشيّة التي تشهدها المعتقلات فيها، وإنّما عن مرحلة السجن المدني.

تبدأ مرحلة السجن المدني بعد أن يتم تحويل المعتقلة من أحد الأفرع الأمنية إلى "سجن عدرا المركزي- سجن دمشق" وهو مكان تجمّع المعتقلات من كافة الأفرع في المدن السورية. مرحلة السجن المدني أشبه ما تكون برحلة عذاب قاسية تبدأ بفقدان الأمل. فبعد عرضها على قاضي محكمة الإرهاب وتوقيفها من قبله، هنا تستعد المعتقلة لحياة جديدة مختلفة وقاسية بين جدران الزنزانة العفنة، بانتظار معجزة سماوية أو مبادلة قريبة تخرجها إلى نور الحريّة من جديد.

لا يوجد داخل مهاجع السجن إلاّ نمط حياة واحدة، طعام وشراب ونوم، أمّا زيارات الأهل أيام الأحد والأربعاء من كل أسبوع فهي وجع آخ. والأكثر إيلاماً هنّ تلك النسوّة والصبايا اللواتي لا زيارة لهنّ؛ ويالِ حالها المأساوي تلك التي لا زيارة لها، تلك المنسيّة من أهلها وأصحابها، من هجر أهلها أو مات تحت القصف، من تخلّت عائلتها عنها لأنّها مُعتقلة بتهمة الإرهاب، أو من طلّقها زوجها على شباك السجن لذات السبب حيناً، وخشيّة اعتقاله هو الآخر حيناً آخر!

أكثر من نصف المعتقلات السوريات هنّ أمهات، أمهات لا تفارق مخيلة الواحدة منهنّ صورة أطفالها: ماذا يفعلون؟ ماذا يأكلون؟ من يعتني بهم في غيابي؟ هل يذهبون للمدرسة؟ ولا تنتهي الأسئلة حتّى بانتهاء دقائق وساعات اليوم. وفي الوقت ذاته لا يغيب في حديثها ذكرهم أو التحدث عنهم، ووصفهم بأجمل الأوصاف والدعاء لهم.

حالة لا أقسى منها سوى حالة أم اعتقلت مع طفلها، فما ذنب ذلك الطفل أن يعيش طفولة مأسورة، طفولة معتقلة مرتين؛ مرّة باعتقال أمّه التي تحمله وتعتني به، ومرّة باعتقاله إلى جانبها وسجن طفولته! ما ذنب تلك الأم التي ولدت داخل السجن دون طبيب أو مشفى، ولا حاضنة تمنح ابنتها حقّ الحياة؟ لتموت الطفلة بعد أيام وأمّها لا ترى قبرها حتّى!

أمّا تلك التي تشتاق أمها وأباها وأخوتها، تبكي كلّما رأت سيدة بعمر أمها أو سمعت باسم يشبه اسم أختها.. لا يفارقها هاجس الخوف عليهم، ومنهم أحياناً! فهي تخاف من ردّة فعلهم حين عودتها: هل سينفرون منها خشية المجتمع الذي يعتبرها معتقلة إرهاب؟ أم سيظنون أنّها قد تعرّضت للاغتصاب، فتكون عاراً عليهم ويتبرؤون منها؟

في سجن عدرا للنساء تعيش المعتقلات تخيلات وعذابات.. يعشنها بحلم وأمل بانتظار فجر يوم عظيم يسجّل فيه الحلم خروجهنّ من قفص الظلم والضيم؛ فآمالهنّ بسيطة كتلك الحياة التي يعشنها، بحلم وردي أو بتنجيم بصّارة من بين المعتقلات عشقن كذبها عليهنّ لأنّ الكذب بحدّ ذاته كان بالنسبة لهنّ أملاً.

علماً أنّ للأخبار المُسرّبة من الزيارات حديث آخر، وهو دائماً ما يكون عن مبادلة قريبة منتظرة، وتبدأ الوعود من الأهل بزجّ أسماء بناتهن. وتشغل التكهنات حال المعتقلات في المهاجع، بمن تلك التي ستخرج قريباً؟ وكم معتقلة مطلوبة لتلك المبادلة؟ لتتجدّد الأحلام وتبدأ من جديد.

في سجن عدرا للنساء، التضرّع والدعاء لله عزّ وجل هو سلاح المعتقلات الأقوى؛ فلا تنتهي ليلة من ليالي السجن المظلمة إلاّ بالصلاة والدعاء بفرجٍ قريب وحريّة مُنتظرة، دون أن أنسى عبارتهنّ الشهيرة: "تصبحن على إخلاء سبيل".

سنبقى بانتظارهنّ، مُطالبين بحرّيتهنّ حتى خروج آخر شعلة أمل من بين قضبان سجون الظلم والظلام.

أمل وزواجها الثالث

مريم الحلاق

استقبلت الأسرة عودة أمل بالحزن والدموع والندب على حظها، فقد أصبحت أرملة للمرّة الثانية ولم تكمل ربيعها الرابع عشر، ولم تسلم من ألسنة نسوة القرية وثرثرتهن، وبدأن بالبحث عن عريس يرضى بالزواج من أرملة مات عنها زوجان! (كعبها مدوّر) عبارة تطلق على من يموت عنها أكثر من زوج، وهكذا صُنّفت أمل التي لم تمضِ بضعة أسابيع إلاّ ودخلت حماتها السابقة طالبة يد أمل لابنها الثاني عبد القادر. فرحت الأم وأخفت أمل فرحتها، فهي ولأوّل مرّة تعرف عريسها قبل الزواج وترتاح له. في هذه المرّة الثالثة للزواج لم تكن بحاجة إلى (جهاز) وأثواب جديدة، وبالرغم من هذا فقد أصرّت أمّها أن تخيط لها ثوباً وألبسة داخلية جديدة، عدّة أيام وتزفّ أمل من جديد، للمرّة الثالثة، وقد بدأت عامها الخامس عشر بأمل وفرح.

لأوّل مرّة تشعر أمل أنّها عروس حقيقيّة، وتقبل على زوجها بحب ولهفة، فهو شاب وقريب من عمرها وتعرفه من قبل، وليس له لحية كثيفة بيضاء متيبّسة عجوز.

بدأت أمل حياة زوجية سعيدة، تجالس زوجها تحادثه وتمازحه، تضحك معه، تستمع إلى قصصه التي يسردها عن أحداث جرت في القرية وعن أشياء تشغله وواجب تنفيذها.

"مبروك حامل" هذه العبارة أدخلت الفرح على الدار وأهلها، فعلت زغاريد أمّها وحماتها لتعلن بداية أسرة جديدة؛ أسرة عبد القادر وأمل وولدهما. مرّت شهور الحمل، وبدأ المخاض، ودعت حماة أمل النسوة من أقرباء وجيران لحضور الولادة.

بدأت جميع النسوة بتلاوة ما حفظنه من سور القرآن الكريم همساً، ويشتركن بالدعاء لها جهراً.

تمّت الولادة، وكان المولود ذكراً، ممّا زاد الفرح والارتباط بين أمل وعبد القادر، وأطلقت عليه جدته اسم أحمد، الجدة التي لم تحضر حفل طهوره حين كان في الثالثة من عمره، فقد توفاها الله قبل ذلك بعام.

بدأت مسؤوليات أمل تكبر؛ فقد أصبحت سيدة البيت منذ وفاة حماتها، وكانت رفيقة زوجها في رعاية الأرض من زرع وحصد، بالإضافة للاهتمام بابنها أحمد.

ست سنوات مرّت وأمل سعيدة، وقد ظنّت أنّ الحظّ العاثر قد تركها، لكنه كان يتربص بها. إذ دعي زوجها عبد القادر للالتحاق بالجيش العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى، كان الخبر صاعقاً؛ فهي الحرب، ومن يذهب في "السفربرلك" لا يعود.

مرّت سنتان وأمل وولدها ينتظران سماع أيّ خبر عن عائدٍ من الحرب، لعلّه رأى عبد القادر ويطمئنها عنه، وجاء من يخبرها أنه شوهد في مشفى الغربا (الوطني) في دمشق.

أسرعت أمل إلى أهلها لتدبير أمر سفرها إلى الشام، استعاروا بغلاً من جار لهم، ووضعوا عليه السرج الذي ملأت والدتها جيبيه بالخبز والدبس وبضع قطع من البطاطا المسلوقة. ركبت أمل البغل وخلفها ولدها أحمد الذي أصبح في الخامسة من عمره، واتجها جنوباً إلى دمشق.

ثلاثة أيام قضتها أمل وولدها على الطريق تسير نهاراً وتنام في الخان ليلاً.

استطاعت الوصول إلى المشفى، ولكن الوقت كان متأخراً فلم يسمحوا لها بالدخول لرؤية زوجها وحبيبها ووالد ابنها. جلست على الرصيف، وبكت كثيراً جداً فهي لم تره منذ عامين، وها هو على بعد خطوات منها ولا تستطيع رؤيته.. أشفق عليها الحارس الذي يقف على باب المشفى وأخذها

بالقرب من نافذة تطلّ على سرير زوجها، وقفت بعد أن تمالكت نفسها وناديته: يا عبد القادر أنا أمل ومعي أحمد.

كانت فرحة عبد القادر لا توصف، فهو لم يتوقع رؤية زوجته وولده، ولأنّه كان مصاباً وضعيفاً ولا يستطيع النهوض، فقد أسرع المرضى من حوله وحركوا السرير بحيث يستطيع رؤيتهما، ولكن قامة أحمد كانت قصيرة فحملته أمه ليتمسك بقضبان النافذة الحديدية، وليشاهد والده المريض، وكانت هذه المشاهدة هي كل ما يذكره عن والده!

سألته أمل عن صحته وإصابته، ووعدته بالعناية به حتى يشفى، فهي ستعود في الغد وتصطحبه إلى القرية ووعدها بانتظارها.

تركته قاصدة بيت خال لها في منطقة الشاغور، لتنام عندهم، وتذهب في الغد لتنفّذ وعدها لزوجها عبد القادر، ولكن القدر أبى إلاّ أن يفجعها بموته في تلك الليلة!

اصطحبت جثته إلى مقبرة "باب الصغير" حيث ضمّه ثرى دمشق، ولتعود إلى قريتها مع ولدها أحمد لابسة ثوبها الأسود، للمرّة الثالثة.

أمل وزواجها الرابع

مريم الحلاق

استكانت أمل في بيت زوجها المرحوم ترعى ولدها وما آل إليها من أراضٍ وكروم، إلى أن أصبح عمر أحمد تسع سنوات. حينها فوجئت بأبناء عم المرحوم يطالبنها بالعودة إلى دار أهلها، وترك أحمد في رعايتهم، فقد تجاوز مرحلة رعاية أمّه وهم أوّلى برعايته وبمردود رزقه الذي ورثه عن أبيه!! ووافق كبار القرية على هذا الاقتراح، فهذا هو العرف، وهذه هي العادات، وأحمد -وفق العرف- ينتمي لعائلته من أبيه.

عادت أمل لبيت أهلها حزينة مُستسلمة لقدرها ونصيبها، وكان قرب بيت ابنها أحمد من سكنها يخفّف عليها لوعة البعد عنه، فقد كانت تراه في كل يوم.

بضعة أشهر مرّت على أمل تذهب فيها كلّ يوم لترعى ولدها وتنظّف داره، وتعود لرعاية والدها المريض ومساعدة والدتها في شؤون الدار. إلى أن فوجئت أمل عند عودتها في أحد الأيام بابن خالها الأرمل الذي توفيت زوجته وتركت له ولدين بأنّه يطلب يدها من والدها، ووالدها يأخذ رأيها في ذلك!

أسئلة كثيرة دارت في خلدها، هل تتزوج للمرّة الرابعة؟ هل تستطيع تربية أولاد زوجها وتترك ولدها لأهله؟ هل؟ وهل..؟ وأخيراً قرّرت الموافقة، وانتقلت لبيت زوجها الرابع، وهي في السادسة والعشرين من عمرها. هناك، في ذاك المنزل أنجبت أمل من زوجها الشيخ محمد صبيّان وبنت ربتهم مع أخوتهم لأبيهم مصطفى وخديجة.

لكن حظّ أمل البائس لم يفارقها أبداً؛ فها هو زوجها الرابع الشيخ محمد يفارق الحياة بعد مرضٍ أنهك قواه وجسده، ليتركها وحيدة مع أولاده الخمسة، وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها.

لكن أمّل التي عذّبتها الحياة منذ نعومة أظافرها تعلّمت كيف تعيش وفق الأعراف والتقاليد، صمتت وعاشت بصمت تربيّ الأولاد الذين كبروا مع الوقت وأصبحوا شباباً، وتزوجت البنتان، وسبقهم إلى الزواج أخاهم الكبير أحمد.

الموت الذي كان مرافقاً لحياة أمل لم يمهلها فرصة لالتقاط أنفاسها؛ فبعد وفاة أزواجها الأربعة فقدت أمل الحزينة أبناءها الشباب واحداً تلو الآخر. أحمد، ولدها البكر من زوجها الثالث، وحبيبها عبد القادر توفيّ عند سقوطه من الطابق الرابع أثناء عمله في السعودية، وكان شاباً في الثامنة والثلاثين من عمره. بعده بعامين توفيّ ولدها عبده حين تلقى ضربة من أشعة الشمس الحارقة حين كان في المدينة المنورة، ووريّ ثراها الطاهر، وكان شاباً كذلك، حتّى أصغر من أخيه أحمد، إذ توفي في الثلاثين من عمره. أمّا أصغر أولادها محمود فقد لقي حتفه حين طلبت منه قريبة له أن يجلب لها سوارها الذهبي الذي سقط منها في بئر الدار. نزل محمود إلى البئر وكان الماء فيه مرتفعاً، والظلام حالك، طلب من الأهل المتحلقين حول فتحة البئر إنزال إنارة فناوله أحدهم مصباحاً متصلاً بالكهرباء وحين أمسكه سرت الكهرباء في جسده. صرخ وسمع الناس صوت سقوط جسده في البئر! كان في السابعة والعشرين من عمره حين توفي.

هكذا توالت أيام أمل، وصبغ الموت علامته في مفارق حياتها، حتى لم يترك لها سوى ابنتها زينة، التي احتضنتها وقضت معها سبع سنوات في لباس أسود، منذ وفاة الابن الأكبر أحمد.

ومبكراً بدأ المرض يفتك بأمل، التي أصيبت بمرضٍ أقعدها عن الحركة، ممّا اضطرّ زينة لبيع ممتلكاتهم في القرية والانتقال إلى الشام. هناك، في الشام، وكما عبد القادر وافت أمل المنيّة بعد عامين من انتقالها إليها مع زينة.

ماتت أمل في الستين من عمرها، بعد أن رافقها الموت لأحبائها منذ سنتها الثانية عشرة.

كثيرون يتساءلون في قريتنا حين يتذكرون ويقصّون حكاية أمل: هل كان لحياتها أن تكون على غير تلك الشاكلة؛ أن لا يحكمها الموت بهذه القسوة، لو لم تزوّج وهي في الثانية عشر لشيخٍ عجوز؟ هل قدّمها أهلها إلى بوابة الموت بتزويجها المُبكر من ذاك الشيخ الجليل؟!

وكيف كانت حياتها لتكون لو أمهلت فرصةً لحياة أخرى.. فرصة للحياة ذاتها؟!

طريق الحرية وعرة لكنها تنتهي بينبوعها

هيفاء الحاج حسين

أطلّ من غربتي على المشهد العام للعالم، فأرى خراباً كبيراً في المنظومة الأخلاقيّة والقيميّة، لم ننجُ منه حتى نحن طلاب الحرية. كان صادماً جداً بالنسبة لي موقف العالم من ثورتنا، وصادماً أكثر التعرّف على تشوّهاتنا كشعبٍ خضع لأكثر من أربعين عاماً للّذل، وقد أزاحت الثورة النقاب عنها.

خسرت حياتي التي كانت مُتمثّلةً بعملي، وبيتي وأهلي ووطني، والأكثر إيلاماً خسارتي لزوجي، حبيبي، بعد حربنا الطاحنة مع الحياة، متسلّحين بالحب والإيمان بغدٍ مشرق، واقتراب موعد قطافنا بشيخوخة هنيّة في كوخٍ ومزرعةٍ صغيرة تكون امتداداً لرؤيتنا عن الجمال والعشق والحرية.

نادته الثورة فلبّى النداء، وابتلعه صوتها الهادر شهيداً تحت التعذيب.

وها إنّني اليوم عالقةٌ مع ابنتي، وهي عازفة غيتار وصديقتها فنانة تشكيلية.. لا عمل، ولا أهل، ولا حقوق، في غرفةٍ لا تصلح للسكن الآدمي، تسبّبت لي بكسرٍ في الركبة لأنّني أساساً أعاني من شلل في الرجل ذاتها. أحتاج لرعاية صحية لا يوفرها لي ظرف السكن ولا البلد، لكأنني لم أدرس يوماً في كلية الفنون الجميلة، لا مناخ موائم للرسم ولا لتأليف الأغنيات، ولا للمضي قدماً في الكتاب الذي كان حلم حياتي أن أنجزه وأقدمه هدية عرفانٍ لوطني.

مع ذلك فأنا أدفع القليل ممّا يدفعه الكثير من السوريين من أثمانٍ باهظة، لقاء حلمنا المشروع بحياةٍ تليق بإنسانيتنا.

في كل يوم، وكلما سمعت عن سقوط المدن واحدةً إثر أخرى أفكّر: هل كان الأمر يستحق؟

قبل الثورة كنت أرقب الإذلال الذي يمارَس على الناس، واستسلامهم له بكل خنوع، وأتساءل: هل يأتي اليوم الذي ينتفض فيه هؤلاء؟ فتتجسّد أمامي مباشرةً صورة واضحة لما سوف يحدث:

خرابٌ كبير وتضحياتٌ هائلة، وغيابٌ للنخبة التي ينبغي أن تنظّم التحرك وترسم لما بعده، غيابٌ تأكّد لي من خلال تماسّي المباشر مع المثقفين في مكان عملي بالمركز الثقافي، وملامستي لسلبيتهم وعجزهم عن أن يكونوا صوت وضمير الناس.

وحين انطلقت أوائل الأصوات من درعا ودمشق تملكني شعورٌ مزدوج بفرح الولادة وبالهلع من الآتي. كنت أمنّي النفس بأنه أمام سطوع الحقيقة، سوف تقف إلى جانبنا كلّ الدول التي تدعي الديمقراطيّة، وسوف تخجل من دمائنا وهول ما يحدث في معتقلاتنا.

لست أنسى روعة صوت المظاهرة الأولى التي خرجت في بلدتي تنادي بالحرية، لقد خرج فيها جميع من أعرف، والكثير ممن لا أعرف، وكان الأمر كما لو أنها معجزةٌ تتحقق.

تمّت ملاحقة الكثيرين ممن خرجوا فيها، وتمّ تأديبنا لاحقاً بحوادث قتل مختلفة الظروف والأسباب، أوصلوا من خلالها رسالة للجميع مفادها: أنتم في فكّ السبع، نحيط بكم من كل الجهات، وليس أسهل من سحقكم جميعاً واحتلال بيوتكم.

كان زوجي من أوائل المعتقلين في البدايات، وحين خرج من اعتقاله الأول في حماه 2011، قرّر أن يغادر مصياف ليعمل في دمشق مسقط رأسه، ويدعم الثورة

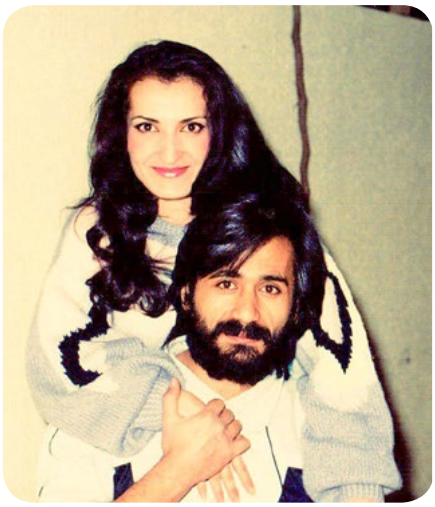

من هناك، لكني حين سمعت باعتقاله الثاني 2013 في دمشق أيقنت بأنّه لن يعود هذه المرة، لأنّ ظروف المعتقلات صارت أقسى، والضوء الأخضر أُعطي للنظام كي يفعل ما يشاء بشعبه، والانتهاكات أفشيت على العلن دونما استحياء، والمقابر الجماعية ذاع صيتها دون أن يستطيع أحدٌ إيقافها أو محاسبة مرتكبيها.

لقد شهدتُ على محرقةٍ يُرمى فيها كلّ الشباب من المؤيدين والمعارضين، وأوّلهم الرافضين حمل السلاح.

كان ينبغي أن أنجو بولديّ.

تعرّفت في اسطنبول على شابٍ بولندي رائع، على هامش دعوتي لمشاركةٍ فاشلةٍ في حفلٍ لفعاليات المجتمع المدني في المدينة، تبرّع أن يرسل لابني فيزا عمل في بولندا، وفعل، وكان أحد بقع الضوء القليلة التي شهدتها على المستوى الخاص منذ اندلعت الثورة؛ فأنا لم أتلقَّ أي مساعدةٍ من أي جهةٍ أو منظمة رغم أنني أحمل مشروعاً فنياً فقدت حماستي له بعد الكثير من الخيبات.

لقد حمل الكثير من السوريين معهم إلى بلاد اللجوء كل مساوئ النظام الذي خرجوا ضدّه: الأنانيّة، الادعاء، الانتهازيّة، حب الظهور، الفوضى، وحب الزعامة ورفض الآخر. وبالرغم من أنّي فقدت ثقتي بكل المنظمات والجهات الحقوقية، لكنّي لم أفقد إيماني بالإنسان، ما زلت أؤمن بأنه قابل للتغيّر والتطوّر، مهما بدا الأمر مستحيلاً.

الطريق ما تزال في بدايتها، وسوف تكون شاقة وطويلة، لكنها خيارنا الوحيد، سوف نترنح، ونخطئ، ونضلّ، وسوف تكون أخطاؤنا هي العلامات للدرب، هي دليلنا للوصول، سوف نكفر بالكثير من الثوابت، ونؤمن بالكثير من الأوهام، ونتعثر بين خطأ وصواب. لكنها طريقنا الوحيدة، ولابد سوف تؤدي بنا في نهاية المطاف إلى الينبوع.

وسوف يعيش شهيدي في حكاية البطولة التي سوف يقصّها ابني على ابنه أو على حفيده ربما.

شهيدي الذي أعشق، وأفتقد، وأداري حزني عليه بكل ما علمتنيه الحياة من حيلٍ ومناورات، رفضاً مني لحالة الإشفاق على الذات، وحرصاً مني على مهابة وجلال هذا الحزن، سوف تحييه شمس الحرية مُجدداً قصةً ناصعةً عن بطولة شعبٍ واجه وحشيّة عالمٍ بأسره.

"حسام يوسف الظفري" الفنان الذي كان يصنع من قطعة الخشب تحفةً تكاد تتكلم عن ماضيها الحميم في الغابة، والمصوّر الذي كان يلتقط الجمال في دعسوقةٍ تطير، وفي حجرٍ عتيقٍ متهالكٍ من بيت جده الدمشقي، أو من قلاع مصياف العريقة.. الفدائيّ الذي هبّ لمساندة فتح خلال الاجتياح "الإسرائيلي" لبيروت 1982، والذي التهب حماسةً في "حرب تموز" وحاول التطوّع لدى المقاومة ورفضوه، والذي خرج بأوّل مظاهرةٍ من الجامع الأمويّ في دمشق، أدرك بفطرته الأصيلة أنّ الطريق إلى القدس يمر عبر الخلاص من الأنظمة الاستبدادية التي تدعم "إسرائيل" بادعاء الوقوف ضدّها.

السلام لروحك يا حبيبي!

وها أنني أهتف لك من عِظم عجزي وقهري:

أشتاقك جداً، وأحتاجك، والدرب ما تزال طويلةً.. طويلة..

بورتريه:

"مريانا مراش" أول امرأة عربية تمتهن الصحافة

المحامية منى أسعد

كتب "الفيكونت فيليب دي طرازي" وهو أشهر مؤرخي الصحافة العربية، في كتابه "تاريخ الصحافة العربية" المنشور عام 1913م ترجمة كاملة عن"مريانا مرّاش" يؤكد فيها أنّها كانت أوّل سيدة عربية كتبت في الصحف "السيارة"، أي إنها الرائدة الحقيقية في هذا المجال.

ويتابع الفيكونت في كتابه أنّ: "مريانا بنت فتح الله مرّاش" ولدت في حلب شهر آب/ أغسطس من سنة 1848م، وكان أبوها "فتح الله مرّاش" رجلاً أديباً عُني بالمطالعة واقتناء الكتب، وجمع مكتبة نفيسة، وله كتابات عديدة مختلفة لم تطبع".

ولعلّ الباحث والصحفي "سامي الكيالي" كان أكثر من أحاط بشخصية "مريانا مراش" وعصرها، في دراسة له متأخرة تعود لسنة 1957 في صحيفة "الحديث" الحلبية التي كان قد أصدرها قبل ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ، حيث يضيف: "كان بيت أبيها من البيوت العريقة التي لها مشاركة بحياة الفكر والأدب، وكان لأخويها فرانسيس وعبد الله -والأول شاعر طبيب، والثاني تاجر أديب- أثرهما المهم في توجيهها نحو حياة الفكر".

وتُجمع المصادر أنها دخلت المدرسة المارونية في الخامسة من عمرها، ثمّ انتقلت إلى المدرسة الإنجيليّة في بيروت، فدرست فيها مبادئ اللغة العربية والحساب وبعض العلوم، إضافة إلى اللغة الفرنسية، لكن والدها أعاد تعليمها الفرنسية، وقواعد الصرف والنحو والعروض في اللغة العربية منذ الخامسة عشرة من عمرها، كما تتلمذت على يد أخويها في الأدب والمعرفة. كذلك درست فن الموسيقا وأتقنته جيداً بجهد شخصي.

بدأت مراش كتابة الشعر والمقالات في سنٍ مبكرة، حيث نشرت أولى مقالاتها "شامة الجنان" في مجلة "الجنان" سنة 1870م. كذلك نشرت مبكراً في جريدة "لسان الحال"، وإذا كانت المراش في شعرها ذهبت مذاهب تقليدية في المديح والغزل والحكم والوصف، إضافة للرثاء، فإنّها تميّزت بغزلها الرقيق، كما أشتهر رثاؤها لشقيقها فرنسيس، وقد جمعت أشعارها التي تعود لأعوام 1874 وحتى 1888 في ديوان صغير بعنوان "بنت فكر" صدر عن "المطبعة الأدبية" في بيروت عام 1893م، ويؤخذ عليها مديح بعض رجال الدولة وبعض رجال السلك القنصلي والسياسي ممّن كانوا يترددون

على صالونها، بمن فيهم والي حلب العثماني.

إلاّ أنّها في باب المقالات كانت ناقدة ومُجدّدة معاً، خاصّة وأنّها سافرت كثيراً إلى أوروبا، حيث اطلعت على تجارب التمدّن والحداثة، ووسّعت آفاق معارفها، فانتقدت الحال المزري لوضع المرأة في مجتمعاتنا، كما انتقدت العادات الشائعة لبنات جيلها، وبدأت تبث فيهنّ روح التحدّي وتدعوهنّ إلى المطالبة بحقوقهنّ. من خلال "التزين بالعلم والتحلي بالمعرفة، والتحرّر من التقاليد والخرافات"، كما يقول الكيالي.

ولم يكن اهتمامها بالقضايا النسوية مُجرّد مشاعر ذاتيّة واهتمام ثقافي، بقدر ما هو انتماء ونضال حقيقي إن صح التعبير، حيث عملت مع لفيف من نساء تلك المرحلة الرائدات على تأسيس جمعية علمية أدبيّة نسائيّة عام 1880م، باسم "باكورة سورية"، كانت تهدف، إلى تنوير نساء جيلها بمفاهيم المساواة بالرجل وتحسين وضعهن في المجتمع، "حتى تقاسم المرأة الرجل أشغاله علماً وأدباً، ويسعيان بيد واحدة نحو إصلاح المعيشة العائلية، وتحسين الهيئة الاجتماعية"، وقد استطاعت هذه الجمعية بعد عام واحد على انطلاقتها أن تجمع ست خُطب للسيدات، أُلقيت باسم الجمعية، وموضوعاتها، هي: الغاية التي خلق الإنسان لأجلها، وتهذيب العقل، والكتب ومطالعتها، والارتقاء، وحياة الإنسان وواجباته، وحقوق النساء، وقامت بطباعته وتوزيعه.

كما سعت المرّاش إلى نسج شبكة من العلاقات المتميزة لها في مستوى الاهتمام بالقضايا النسوية مع رائدات عصرها، كعائشة التيمورية (1840-1902) ووردة اليازجي (1838-1924) ووردة الترك (؟1873-)، وصولاً إلى مي زيادة (1886-1941).

ولايمكن النظر لأهميّة هذه الشخصيّة وما فعلته إلّا في السياق الزمني لتلك المرحلة، حيث يُظهر ذلك جرأتها وريادتها في مجالات شتى، وبشكل خاص ما يتعلق بحقوق المرأة وقضايا التعليم، التي انتقلت بها من مستوى الأحلام إلى مستوى البرامج والتحريض الدعوي، ولم تكن مراش أوّل سيدة عربية تكتب في الصحف مقالات متنوعة فقط، بل افتتحت في منزلها أوّل صالون أدبي، وكانت سابقة في ذلك على صالون "مي زيادة" في مصر، بل اعتبر أول صالون أدبي بمفهومه الحديث في الشرق العربي.

لم يمنعها من ذلك وضعها الاجتماعي كإمرأة متزوجة، ولا منعها عسف الحكم العثماني وظلامية تلك الفترة التي اتسمت بانغلاق الحياة الاجتماعية، بل وعلى العكس من ذلك نجحت مرّاش في استقطاب خيرة أدباء حلب ومثقفيها في تلك المرحلة، حيث تردّد إلى صالونها الأدبي كل من: رزق الله حسون، القسطاكي الحمصي، كامل الغزي، جبرائيل دلال وأخويها فرنسيس وعبد الله مرّاش، وآخرين كُثر، إضافة للفيف من السفراء والقناصل الغربيين والساسة وصولاً إلى الوالي العثماني، حيث يسمعون الموسيقى ويتنادمون بالشعر ويبحثون شؤون زمانهم وشجون بلادهم، وقد وصف ذلك الصالون القسطاكي الحمصي بقوله: "كان منزلها في حلب مثابة الفضلاء وملتقى الظرفاء والنبهاء وعشاق الأدب".

وأوّل تعريف بمريانا مراش كتبته "لبيبة هاشم" في صحيفتها "فتاة الشرق"، حيث كانت مراش في أخريات سنيها تعاني من مرض "العصاب" الذي أودى بحياتها في حزيران من عام 1919 عن عمر يناهز 71 سنة. وبعد وفاة المراش قامت "هاشم" باستكتاب الباحث "إسكندر المعلوف" لباب "شهيرات النساء" في ذات الصحيفة، لكن البعض يعتبر أنّ أوّل من كتب عنها بعد وفاتها هو الأديب الشهير "جرجي نقولا باز" في كانون الأول/ يناير من العام 1919، لمجلة "الخدر" النسائية لصاحبتها عفيفة صعب.

حُرِيَّة